حـوار الثقافـات

أ.مولود طياب
(مترجم)

حوار الثقافات من قبيل حوار الحضارات، فالحضارة عبارة عما يتمتع به مجتمع من تقدم وتمدن في مختلف مظاهره العلمية والتقنية والفنية والسلوكات الأخلاقية وهي المظاهر المادية التي تتسم بها حياة مجتمع ما، بينما تمثل الثقافة الصورة النظرية لهذه الحضارة، وميراثها الفكري المسجل الذي ينقل كتاريخ لتطور المجتمع البشري، فالحضارة والثقافة عبارتان مترادفتان بمفهومهما ولا يمكن أن نتحدث عن الثقافة دون نسبتها إلى حضارة، وعن اللغة التي كانت وعاء لها.

وفي نظر المؤرخين والمفكرين أن الحضارات متعددة تنسب كل حضارة إلى المجتمع أو الأمة التي أنشأتها، وإلى اللغة التي سجلت مظاهرها ونقلتها، ولذا نقول الحضارة الغربية والحضارة العربية، والحضارة الصينية وغير ذلك من الحضارات القديمة من يونانية رومانية وهندية، على أن الأستاذ ابن نبي يقول إن الحضارة واحدة، وأنها كالنهر الخالد الذي يختار بلدانا عديدة فيسقيها، ويعتنى بما تمده به الروافد في منطقة البلد، وهذا صحيح لأن الحضارة، وبالتالي ميراثها الثقافي تتوارثه الأمم عبر العصور، وتعبر عنه بلغتها، مضيفة

إلى الميراث ما تنتجه وتكتشفه بعبقريتها الخاصة، فليس ثمة حضارة نشأت من عدم.

فالاحتكاك والصلات بين المجتمعات البشرية هو سبيل التطور الحضاري والثقافي عبر العصور، وقد سبق أن الفارابي المعلم الثاني يري أن الحكمة أي المعرفة، إنما نشأت وظهرت للوجود في بلاد النهرين، ثم انتقلت إلى مصر، وأخيرا إلى اليونانيين الذين سجلوا ميراثها...[1].

لهذا يلاحظ أن المؤرخين للحضارات والثقافات يرجعون دائما إلى حضارات المشرق وحضارات البحر الأبيض المتوسط، لتحديد سلسلة التطور الحضاري الثقافي، ومراحل التقدم العلمي والتقني وما تخللته من اكتشافات في جميع المجالات المعرفية النظرية وغير النظرية.

منابع الحضارة الغربية

الحضارة الغربية الحالية، أعني حضارة عصرنا، التي تعيشها سائر الأمم والشعوب حضارة عالمية، بلغت أوج التقدم في العلوم والتقنيات والتحكم في الطبيعة مع ما لكل شعب أو مجتمع من خصوصيات تقليدية، من عادات وطرق تفكير وتعبير عن المفاهيم المشتركة بين لغات البشرية، ومعنى ذلك أن بين الحضارات والثقافات قدرا مشتركا من المعارف العامة والمبادئ النظرية، وطرق الاستنباط المتماثلة أو المتقاربة ولكنها تعبر عنها تعبيرا خاصا بلغة وطنية محلية، فالحضارة الغربية وثقافتها في نظر المؤرخين والمفكرين المتحيزين، والمتعصبين، حضارة ترجع منابعها إلى الحضارة اليونانية وميراثها الفكري، وإلى الميراث الديني اليهودي المسيحي،

أي أنها حضارة مشرقية متوسطية، لأن اليونان مشرقيون فكريا وثقافيا، وإن كانوا جغرافيا من القارة الأوربية، فالحضارة والثقافة اليونانية من ميرات الحضارة المصرية وحضارة الرافدين كما قال الفرابي، لم تنشأ من عدم وأعلامها من اليونان وغير اليونان.

ولأن الديانة اليهودية والمسيحية لا شك أنهما مشرقيتان قد ظهرتا في الوطن المشرقي الغربي – قبل الإسلام، وانتشرت المسيحية بعد ذلك في أقطار البحر الأبيض المتوسط بجهود الآباء الدعاة ولكن لم يعترف بها الرومان إلا بعد القرن الثالث الميلادي في عهد الأمبرطور قسطنطين، فهو الذي أصدر قرارا بهذا الاعتراف سنة 313 ميلادية.

فلا غرابة إذن، إذا كان بعض المؤرخين الغربيين في عصرنا، يرجعون منابع الحضارة الغربية وثقافتها إلى المشرق، ومن ذلك بيير أميات (P Amiet) الذي يقول في مقدمة كتابه الحضارات القديمة في الشرق الأوسط[2] : "إن عنايتنا بمعرفة أمجاد ثقافتنا وأسسها ومعناها العميق، تفرض علينا تجاوز بحوثنا إلى ما قبل روما وأثينا، إلى آسيا الجنوبية الغربية، مهد الشعوب والحضارات التي كان "الكتاب" أغنى ثمراتها في نظرنا، ومن حقنا أن نطالب بملكيتنا لهذا المشرق، كما أننا من ميراثه، إذ أن الحضارات السابقة التي لا تزال حية تتمثل في الواقع كبعض ميراثنا".

أما بيير روسي (p. rossi) فيقول في مقدمة كتابه وطن (مدينة) إيزيس (la cité d'isis) "أن الأوربيين يحصرون منابع ثقافتهم في دائرتي أثينا

وروما، إن هذا التقدير خاطىء، أملته التعصباب الدينية والسياسية، فليس من شك في أن مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المسيطرين طيلة ما يزيد عن ألف سنة على وثائق تاريخ العصور القديمة، هم الذين يقولون بذلك تمجيدا للغرب الأوربي."

ويضيف بيير روسي قائلا في هذه المقدمة "إن تاريخ المشرق والغرب إنما جرى تحت نور آسيا الفياض، وتحت سماء النيل، إن مصر وبابل (بلاد النهرين) تلقتا الإيحاءات الكبيرة التي نشأت عنها الحضارة الغربية الكبيرة التي أذاعت منذ فجر التاريخ اسلوب حياتها في سائر البلدان الواقعة بين نهر الأندلس (في الهند) ونهر الطاج (tage) في (إسبانيا)... ويقول روسي أن أوربا ليست هي مركز العالم ولا هي مرآة الخير الأسمى، إنها بنت الشرق الإفريقي الأسيوي ولا تمثل في هذا المحيط من الفضاء والزمان، إلا منطقة تعمل فيها الطاقات عملها وتجذبها بما لها من تأثير..."[3]

وقد يكون من الفائدة أن ننقل للقراء ما يقول روسي بخصوص اليونان وحضارتهم، فهو يقول: "إن هيردوت يستغرب التمييز بين أوربا وآسيا، لأنه يرى مع مواطنيه أن ثقافتهما واحدة، وفعلا إن بلاد اليونان من آسيا، وقد نقلت الميراث الفينيقي ثمرة أربعة آلاف من الجهود التي بذلتها مصر وبابيلونيا (بلاد النهرين)..." ويظيف قائلا: "إن اليهودية والمسيحية، ما هما إلا عنصر من المساهمة اليونانية إننا في الواقع أبناء آسيا وابناء العروبة النيلية والرافدية، ونطالب بجملة الميراث..."[4].

ويقول روسي بعد ذلك: "أرجعنا منبع الثقافة ونشرها إلى الهيلينية وحدها أثناء مدة طويلة، دون تقدير ما يستدعي ذلك من إعجاز، ودون الاعتراف بأن بلاد اليونان، لم تكن إلا جزءا تابعا للكيان العربي في المشرق، الأمر الذي يعترف به اليونان أنفسهم بدون أي تردد."[5] ويقول فيما يتعلق باللغة العربية:" الأولى في البحر المتوسط قبل لغة هوميز وأنها هي التي أمدت اليونانية بقوانينها".

الثقافة العربية والميراث اليوناني

إن الثقافة العربية في مفهوم بيير روسي ليست هي ثقافة القرون الوسطى، وريثة الثقافة اليونانية فحسب بل إن الثقافات القديمة في مصر وفي بلاد النهرين من الثقافة العربية، ولكن التاريخ الرسمي يفتت تاريخ العصور القديمة بين بلدان المشرق، ويعزو لكل شعب حضارة خاصة، مصرية أوبابلية كلدانية أو فينيقية، فالقضية موضوع مناقشة، لايمكن عرض آراء المؤرخين فيها، ونعني في هذه الكلمة الحضارة العربية التي انتشرت بعد الإسلام، ونشأت معها ثقافة سادت عالم البحر الأبيض المتوسط وبلدانه، طيلة سبعة أو ثمانية قرون حتى عهد النهضة الأوربية.

فالثقافة العربية خلال هذه القرون كانت ثقافة العالم المتحضر بلغتها العربية، ولا يسوؤها أن يقال إنها ورثت الثقافة اليونانية حقا، لقد ورثت الثقافة العربية ثقافة اليونان وحكمتهم وفلسفتهم وعلومهم، ولكن الأمر الذي لا نزاع فيه، هو أن الثقافة العربية كانت ثقافة مبدعين، لا مجرد ناقلين، فالثقافة العربية قد أنجبت فلسفة عربية وحكمة ذات أصالة حقيقية، كما أبدعت في

مجال العلوم المختلفة، ولم تكن مجرد وسيط بين اليونان والغرب بالنقل الصرف في جميع أبواب المعرفة، كما يذكر ذلك المؤرخون النزهاء الغربيون اليوم، فالحضارة التي توسم بها النهضة الأوربية، بنت الحضارة العربية التي نشرت معارفها في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ثم في قلب أوربا وبريطانيا، دون أي داع لذكر الأعلام الذين كانوا من نقلة العلم العربي والفكر العربي إلى هذه البلدان وإن العلم العربي بفروعه المختلفة، إنما نقله الناقلون من المصادر العربية بما فيها الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا، لقد حدثث معجزة عربية، كما كانت قبل ذلك معجزة يونانية. ويكفي أن نذكر كلمة للمؤرخة الألمانية سنجريد هونكي (s. hunke) صاحبة كتاب "شمس الله تشرق على الغرب" فقد قالت في مقدمة الكتاب "لقد آن الأوان على ما يبدو لنتحدث عن شعب (أي: العرب) قد طبع أحداث العالم بسمة عميقة: وهو شعب يدين له الغرب وسائر الإنسانية بشيء غير قليل..." ففي تلك القرون الوسطى كان العرب على أبواب أوربا طيلة ثلاثة أرباع ألفية حملة مشعل الحضارة، وقد امتد ازدهارها طيلة مدة ضعف مدة الحضارة اليونانية وكان لهم تأثير مباشر وأوسع من تأثير اليونان على الغرب، ولكن ذلك لا يسترعي الأنظار والاهتمام... ألم يحن الآوان لإنصاف شعب حرمناه بسبب تعصبنا الديني من حقه في حكم نزيه عادل، فأنكرنا إنجازاته، وسكتنا عن مساهمته في حضارتنا؟"

إن الحضارة العربية و(ثقافتها) لا يمكن تجاهلها وتجاهل ما كان لها من أثر في تقدم البشرية بمبادئها العقلية والعلمية، وحكمتها الدينية الفلسفية وقد امتد سلطانها إلى القارات الخمس ولا يزال في هذا العصر الذي غلبت فيه

المادية والسيطرة الفكرية باسم العولمة، والاستبداد السياسي والأنانيات العنصرية، إن الحضارة العربية (وثقافتها) لم يتوقف تطورها، بل أسلمت الميراث للنهضة الأوربية، التي اضطلعت برسالتها على أكمل وجه لفائدة البشرية.

الحوار الثقافي الدائم

إن الحوار الثقافي دائم بين الأمم على اختلاف لغاتها لأنها تنتمي جميعها إلى حضارة واحدة ترجع جذورها إلى منابع واحدة هي حضارات المشرق القديم ، بأديانها التوحيدية وفلسفاتها العقلية المنطقية، والحوار بين الثقافات حوار بين الحضارات، الذي انقلب في نظر بعضهم (سمويل هيومنجتون) "صداما" ونزاعا بين الشرق والغرب،أو بين الإسلام والمسيحية، بيد أنه في الواقع نزاع وصدام مختلق للدفاع عن المصالح غير المشروعة في أي مذهب ودين، والتبادل بين الثقافات أمر واقع مادام التعايش والتجاور بين الأمم والشعوب وبين لغاتها المتداخلة المترافدة وكما قال القائل:

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

إن العالم اليوم يعيش حضارة واحدة هي الحضارة الغربية العلمية التقنية، مع لكل أمة سمات وميزات خاصة، وتقاليد ترجع إلى الميراث الثقافي اللغوي، والظروف المعيشية التي تمليها كل بيئة أو محيط. فالاستعلاء الثقافي والكبرياء الحضارية مما يؤدي إلى التنافر والتناكر بين الشعوب، في حين تسعى البشرية إلى وحدة مصير تحت سلطة هيئة الأمم المتحدة

القائمة على مبدإ المساواة والعدالة والديمقراطية، وكل فلسفة لا تخضع لهذا المبدإ لا محالة فاشلة لأنها تنكر للثقافة.

المراجع (فرنسية)

1. تاريخ الفلسفة الإسلامية

- H CORBIN histoire de la philosophie musulmane gallimant 1964.

2. الحضارات القديمة في الشرق الأدنى

- P amiet : les civilisztion antiques des proches orient (que sais je) PUF 1971.

3. وطن (مدينة) إيزيس

- P. Rossi la cité d'Isis
- Nelles edition latines 1976.

4. المعجزة العربية

- Max vintejoux : le miracle arabe charlot 1950.

5. شمس الله تشرق على الغرب.

- S. HANKE : le soleil d'allah Albin Michal 1963.

الهوامش

1. تاريخ الفلسفة الإسلامية هـ. كربان ص 224.
2. P Amiet – page 3 les civilisations antiques du proche orient (que sais je P U F 1971).
3. المقدمة ص 9 و 10.
4. ص 244 وطن (مدينة) إيزيس.
5. ص 33.